obeikandi.com

الفصل الثالث

الترجمة الذاتية واليوميات

obeikandl.com

ظهور الفنين من طبيعة الفترة

كان من آثار تغلب الاتجاه الفكرى الغربى فى هذه الفترة أولا ، ثم من نتائج الشعور باستقلال الشخصية والإحساس بالذاتية ثانيًا ؛ أن ظهرت كتابات تدور حول ذات الكاتب وتتناول أموراً تتصل بشخصه . وقد يضاف إلى أسباب ظهور فنى الترجمة الذاتية واليوميات ، ما قد يكون من إحساس بالنفرة من الأوضاع العامة ، والرغبة فى الانسحاب إلى الذات وتأمل الحياة من خلالها .

وقد مضى – أثناء الحديث عن الرواية – أن لونًا منها كان يعالج « التجربة الشخصية » للكاتب ، ويعرضها فى قالب روائى[1] . . غير أن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، الذى يعالج فيه الكاتب بعض تجاربه بطريق غير مباشر ، ويحاول تقديم ذاته وصفحات من حياته مختفيًا وراء أسماء مستعارة ، وأحداث تجمع الخيال إلى الحقيقة . بل تجاوز الأمر ذلك إلى كتابات تؤرخ حياة الكاتب فى صراحة ومباشرة ، أو تعرض صفحات من تجاربه فى واقعية ومواجهة . ولا تلجأ إلى بعض خصائص القصص إلا لتجميل العمل والبعد به عن طابع المقال التقريرى الجاف . . وواضح أثر روح الفترة على هذا اللون من الكتابة ؛ فقد كانت الفترة التى أعقبت ثورة سنة ١٩١٩ ، واستهلت بإعلان الدستور والاستقلال ، وإن كانا غير كاملين . وقد سبق توضيح ما كان من نتائج نفسية لذلك ، وما انعكس

---

(١) انظر : الفصل السابق من هذا الكتاب – المبحث الخاص « برواية التجربة الشخصية » .

على النفوس بسببه من شعور باستقلال الشخصية وإحساس بالفردية[١]، الأمر الذى منح بعض الكتاب طاقات جريئة لكى يحكوا حياتهم ، أو يقصوا أطرافاً من تلك الحياة ، محاكين فى هذا الاتجاه — قبل كل شىء — بعض كبار كتاب الغرب الذين صنعوا نفس الشىء ، فأخرجوا فى آدابهم آيات من الفن الرفيع .

ولقد ظفر الأدب المصرى . من هذه الكتابات — خلال الفترة التى يساق عنها الحديث — بعملين جليلين ، هما : « الأيام » لطه حسين ، و « يوميات نائب فى الأرياف » لتوفيق الحكيم .

١ — « الأيام » لطه حسين :

فى الجزء الأول من هذا الكتاب ، وهو الجزء الذى ظهر فى هذه الفترة[٢] اتجه الكاتب إلى التأريخ للفترة الأولى من حياته ، منذ الطفولة والنشأة فى القرية ، إلى الصبا والقدوم على القاهرة لإتمام الدراسة فى الأزهر . . ولم يقف الكاتب عند حدود ذاته وحياته الخاصة فحسب ، بل تجاوز ذاته وحياته ، إلى ذوات المتصلين به ، وحيوات أخرى قريبة منه ، ليؤرخ فى الوقت نفسه لحياة أسرة فقيرة هى أسرته ، باعتبارها نموذجاً لآلاف من الأسر المصرية ، وليسجل كذلك حياة قرية مصرية متخلفة هى قريته ، بوصفها صورة لعديد من القرى المتناثرة على أرض الوطن . . ولم يكن الكاتب مصوراً صادق اللمسات جرىء الألوان فقط ، وإنما كان ناقداً

(١) انظر : التمهيد الذى صدر به هذا الكتاب .

(٢) نشر هذا الجزء فى كتاب سنة ١٩٢٩ ، وكان المؤلف قد بدأ نشره مسلسلا فى مجلة « الهلال » سنة ١٩٢٦ . أما الجزء الثانى فقد ظهر بعد الفترة التى نؤرخ لأدبها .

ومصلحاً وموجهاً فى نفس الوقت . فقد كان يتخذ من الصور التى يعرضها، سبيلا إلى تجسيم عيب أسرى أو اجتماعى أو تربوى ؛ لينبه إليه ويلفت الأنظار إلى إصلاحه والقضاء عليه . . فالكتاب يحكى مأساة الصغير الذى فقد بصره نتيجة لتخلف البيئة وإهمال النشء فيها ؛ فراح يتعرف على الدنيا ويتصل بالحياة بحواس ناقصة وإمكانيات محدودة ، وبذل فى سبيل ذلك الكثير من هدوء النفس وأمن السرب ومغالبة الضعف . . والكتاب يقدم صوراً عديدة حية لأسرة هذا الصبي ، من أبيه المثقل بحمل العيال وزحمة العمل ، إلى أمه المجهدة بشئون البيت ورعاية الأولاد والزوج ؛ ومن أخيه الأزهرى الذى كان المثل الأعلى للصبى ذات يوم ، إلى أخيه الآخر المدنى الذى اختطفه الموت وهو فى عمر الورد ؛ ثم من تلك الأخت الطيبة التى كانت تحنو عليه وتؤثره بالرعاية والود ، إلى هذه الأخت الأخرى التى خلف فقدانها للأسرة حسرة لا يعدلها إلا الحسرة على أخيها الذى داهمه الموت . . كل هذا إلى حياة الأسرة فى نظام عيشها ، وأسلوب علاقاتها ، وما يكون لها من أفراح حيناً وأتراح فى كثير من الأحايين .

ويخرج الكتاب من رسم صور أسرية ، إلى تقديم مشاهد أكثر اتساعاً وأكبر حجماً ، هى مشاهد قروية . ويهتم بصفة خاصة « بالكُتَّاب » الذى حفظ فيه الصبي القرآن ، ويتحدث عن « سيدنا » و « العريف » وغير هذين ممن يضمهم هذا « الكتاب » الذى يعتبر الخطوة الأولى فى حياة أهل الريف الثقافية ، ويصور كيف كانت الحياة فى هذا الكُتَّاب وكيف كانت العلاقة بين المعلم والمتعلم ، لا تقوم على أسس سليمة ،

ومن العسير لذلك أن تنتج عقولا قويمة أو أجساماً صحيحة أو نفوساً بعيدة عن التعقيد .

ولا يكتفى الكتاب بالحديث عن « سيدنا » كعلم من أعلام القرية فى ميدان المعرفة ، بل يتحدث عن قاضى الشرع ، وعن إمام المسجد ، وعن بعض أصحاب الطرق الصوفية ، وعن أثر هؤلاء جميعاً على القرية ؛ حيث يغلب أن يوجه الناس بسببهم إلى الغيبيات والخرافات ، ويقعون كثيراً فى حبائل الاحتيال وأأوان الاستغلال .

ويمضى المؤلف فى عرض حياته ، وما حولها من حياة أسرته ، وما حول حياة أسرته من حياة القرية بقيمها المادية والروحية ، وما فى ذلك كله من قسوة الظروف وظلام الأفق وشظف العيش ؛ حتى نراه قد أتم حفظ القرآن ، واستوعب ما هو ضرورى من المعرفة الدينية لكى يلتحق بالأزهر . . ويصف لنا كيف كان أمله لا يحد ، وكيف كان شوقه إلى الأزهر والجلوس إلى شيوخه لا يوصف . إلى أن يوقفنا على فجيعته بخيبة الأمل وبرود الشوق . . فقد ذكر أنه جاء إلى القاهرة ، وذهب به أخوه إلى الأزهر ، فجلس يستمع إلى أول درس يلقيه الشيخ ، وكله حس مرهف وسمع مصغ . ولكن الشيخ بدأ يقول فى درس عن الطلاق : « ولو قال لها أنت طلاق ، أو أنت ظلام ، أو أنت طلا ل ، أو أنت طلاة ؛ وقع الطلاق ولا عبرة بتغير اللفظ . . يقول ذلك متغنياً به مرتلا له ترتيلا فى صوت لا يخلو من حشرجة ، لكن صاحبه يحتال أن يجعله عذبا ، ثم يختم هذا الغناء بهذه الكلمة التى أعادها طوال الدرس : (فاهم يا أدع ؟) وأخذ الصبي يسأل نفسه عن الأدع هذا ما هو ؟ حتى إذا انصرف عن

المدرس سأل أخاه : ما الأدع ؟ فقهقه أخوه ، وقال : الأدع : الجدع في لغة الشيخ . . »[١] .

وهكذا يلفت الكاتب النظر بقوة إلى ما كان من تخلف الأزهر حينذاك ، وإلى وجوب الإسراع بتطويره ورعايته ، كأمل ضخم للملايين من أبناء الوطن والبلاد الإسلامية أيضاً .

هذا ومعروف أن طه حسين بدأ يكتب أيامه بعد الضجة التي أثيرت حول كتابه عن الشعر الجاهلي . فكأنه أراد من خلال التأريخ لحياته أن يعبر عن أمرين أساسيين ، كان التعبير عنهما ضرورياً بالنسبة إليه في هذه الظروف . أما الأمر الأول ، فهو تأكيد ذاته وتصوير عظمة كفاحه ، وعرض صفحات من جلده وثباته برغم أقسى الظروف . وأما الأمر الثاني فهو الكشف عن جذور جهل البيئة الثقافية التي تعرضت له ، وإدانة التخلف الفكري الذي قاوم تقدميته[٢] .

وقد كان خروج المؤلف من ذاته إلى بيئته ثم إلى مجتمعه أول ما يُسجّل له بالتقدير ، كما كان اهتمامه بالنقد والإصلاح ثاني ما يذكر له بالثناء . ثم كانت هذه الجوانب الفنية الممتازة التي ابتعد بها الكاتب عن الأسلوب المقالي المباشر ، ثالث ما يصعد بعمله إلى مكان رفيع .

وأولى هذه الوسائل الفنية انتقاء الحوادث انتقاء ملائماً ، وترتيبها ترتيباً فنياً ، وعرضها – في الغالب – عرضاً مصوراً صادقاً حياً ؛ حتى اتخذت أحياناً سمات قصصية جذابة ، ونبضت أحياناً أخرى بنبضات شعرية حارة .

---

(١) انظر : « الأيام » للدكتور طه حسين جـ ١ ص ١٣٠ – ١٣١ .

(٢) انظر : تطور الرواية العربية للدكتور عبد المحسن بدر ص ٣٠٤ .

وثانية هذه الوسائل ، حكاية الكاتب للأحداث بطريقة الحديث عن الغائب ، وكأنه يتحدث عن شخص آخر غير شخصه ؛ وذلك ليعطى نفسه — وهو الكاتب الكبير — فرصة إيراد الأفكار العالية ، والصور الممتازة ، والأسلوب الأخاذ . بخلاف ما لو أجرى الكلام على لسان نفسه بطريق المتكلم ، فهنا كان ملزماً بحصر نفسه فيما يمكن أن يكون للشخص المتحدث فى مرحلة الطفولة أو الصبا ، من أفكار وصور وعبارات (١) .

وثالثة هذه الوسائل ، الميل إلى الإطلاق ، وعدم التحديد فى الأسماء والأماكن عندما لا تدعو الضرورة ؛ وذلك لتكون الشخصيات التى يعرض لها ، والأماكن التى يتحدث عنها ، بمثابة النماذج التى يراها الرائى فى كثير غير شخصيات الكتاب ومسرح أحداثه (٢) . فوالد الصبى ، هذا الرجل المثقل بالأعباء ، يسمى فى الأيام « الشيخ » ، وبلدته تلك التى رزحت تحت الفقر الروحى والمادى ، تسمى « القرية » ، ومعلّم الكتاب هو «سيدنا» ، وهكذا . ومن هنا نجد وجه « الشيخ » فى كل أب مكافح من أجل عياله الكثيرين ، ونرى صورة القرية فى كل قرية تعيش على التخلف والفقر ، ونطالع سيدنا فى كل مُعلّم ضئيل الحظ من المعرفة ، عديم الوسائل الفنية فى تربية النشء .

على أن هناك بعض الملاحظات الطفيفة على « الأيام » باعتبار هذا العمل ترجمة ذاتية ، من شأنها أن تجعل محورها الأصلى شخصية

---

(١) انظر : المصدر السابق ص ٣٠٤ .

(٢) انظر : « الهلال » العدد الخاص بطه حسين الصادر فى أول فبراير ١٩٦٦ مقال الأستاذ عبد الرحمن صدقى ص ١٨ .

الكاتب . . ومن هذه الملاحظات ، أن المؤلف كان يترك المحور أحياناً ليقدم أحاديث فى موضوع معين يريد أن يدلى فيه برأى ، فتأتى هذه الأحاديث أقرب إلى المقالات منها إلى فصول من ترجمة الذات . ومن ذلك حديث المؤلف عن مصادر المعرفة فى القرى ، وكونها تأتى أحياناً من بعض العلماء ، وأحياناً من بعض المتصوفة وأحياناً أخرى من الغيبيات والأساطير والسحر ، وتفصيل القول فى ذلك تفصيلا يجعل منها شيئاً يوشك أن يكون بعيد الصلة بالترجمة الذاتية . . ومن هذه الملاحظات أيضاً ، أن المؤلف كان يهتم أحياناً بالحديث عن شخصيات ضعيفة التأثير فيه ؛ ويقف عندها وقفات طوالا ، على حين يوجز الحديث عن شخصيات أخرى من شأنها أن تكون قوية التأثير عليه ، وكان المنتظر أن يطيل عندها الوقوف . ومثال ذلك اهتمامه بعرض نماذج العلماء فى القرية واختيارهم يمثلون المذاهب الأربعة ، ثم عبوره عبوراً سريعاً حين يتحدث عن أم الصبى وأكثر إخوته وأخواته ، ممن شأنهم أن يكونوا أوثق صلة بمحور « الأيام » وأقوى تأثيراً على بطلها ، وخاصة فى هذه المرحلة المبكرة من عمره[1] . .

ثم من هذه الملاحظات بعد ذلك ، عدم التعاطف مع بعض الشخصيات التى من شأنها أن تستحق العطف[2] ، أو القسوة فى التهكم ببعض البسطاء الذين حسبهم ما قست به عليهم الحياة . ومن ذلك حديث المؤلف عن « سيدنا » وقبح صوته وهو ينشـــد أبياتاً من البردة ، وقول المؤلف عن الصبى وإحساسه إزاء صوت هذا الشيخ وغنائه : « وما قرأ صاحبنا قول الله عز وجل . إن أنكر الأصوات لصوت الحمير . إلا ذكر

---

(١) انظر : تطور الرواية العربية للدكتور عبد المحسن بدر ص ٣٠٧ – ٣٠٩ .

(٢) انظر : المصدر السابق ص ٣٠٩ – ٣١٠ .

سيدنا وهو يوقع أبياتاً من البردة فى طريقه إلى الجامع منطلقاً لصلاة الضهر ، أو فى طريقه إلى البيت منصرفاً من الكتاب[١] .

على أن « الأيام » برغم ذلك من أروع الأعمال الأدبية فى الأدب المصرى الحديث ، وحسب صاحبه أنه بدأ به فن الترجمة الذاتية فى هذا الأدب . وقد اعتبره كثير من الدارسين أروع ما كتب طه حسين[٢] . بل اعتبره المستشرق الإنجليزى « جيب » أحسن عمل أدبى فى الأدب المصرى الحديث ، حين كتب عنه سنة ١٩٢٩[٣] .

وهذه هى السطور الأخيرة من « الأيام » التى يتحدث بها المؤلف إلى ابنته ، مختتماً حديثه عن الكفاح ضد التخلف والفقر والعجز ، بذكر ما كان للحب الخلاق والزوجة الواعية والاستقرار الأسرى من فضل ، فيقـــول :

« عرفته فى الثالثة عشرة من عمره حين أرسل إلى القاهرة ليختلف إلى دروس العلم فى الأزهر ، إن كان فى ذلك الوقت لصبيّ جِدٍّ وعمل . كان نحيفاً شاحب اللون مهمل الزى أقرب إلى الفقر منه إلى الغنى ، تقتحمه العين اقتحاماً فى عباءته القذرة وطاقيته التى استحال بياضها إلى سواد قاتم ، وفى هذا القميص الذى يبين أثناء عباءته ، وقد اتخذ ألواناً مختلفة من كثرة ما سقط عليه من الطعام ، وفى نعليه الباليتين المرقعتين . تقتحمه العين فى هذا كله ، ولكنها تبتسم له حين تراه — على ما هو عليه من حال رثة وبصر مكفوف — واضح الجبين مبتسم الثغر ، مسرعاً فى مشيته

(١) انظر : « الأيام » للدكتور طه حسين ص ٢٨ .

(٢) انظر : الأدب العربى الحديث فى مصر للدكتور شوقى ضيف ص ٣٨٤ .

(٣) انظر : رأى « جيب » فى كتابه .

Studies on the Civilization of Islam, P, 79,

إلى الأزهر . لا تختلف خطاه ولا يتردد فى مشيته ، ولا تظهر على وجهه هذه الظلمة التى تغشى عادة وجوه المكفوفين . تقتحمه العين ولكن تبتسم له ، وتلحظه فى شيء من الرفق . حين تراه فى حلقة الدرس ، مصغيا كله إلى الشيخ يلتهم كلامه التهاماً ، مبتسماً على ذلك لا متألماً ولا متبرماً ، ولا مظهراً ميلا إلى لهو ، بينما الصبيان من حوله يلهون أو يشرئبون إلى اللهو . . عرفته يا ابنتى فى هذا الطور ، وكم أحب لو تعرفينه كما عرفته ، إذن تقدرين ما بينك وبينه من فرق . ولكن أنّى لك هذا وأنت فى التاسعة من عمرك ، ترين الحياة كلها نعيماً وصفواً . عرفته ينفق اليوم والأسبوع والشهر والسنة لا يأكل إلا لوناً واحداً ، يأخذ منه حظه فى الصباح ، ويأخذ منه حظه فى المساء . لا شاكياً ولا متبرماً ولا متجلداً ، ولا مفكراً فى أن حاله خليقة بالشكوى . ولو أخذت يا ابنتى من هذا اللون حظاً قليلا فى يوم واحد ، لأشفقتْ أمك ولقدمت إليك قدحاً من الماء المعــدنى ، ولانتظرت أن تدعو الطبيب . لقد كان أبوك ينفق الأسبوع والشهر ولا يعيش إلا على خبز الأزهر . وويل للأزهريين من خبز الأزهر ، إن كانوا ليجدون فيه ضروباً من القش وألواناً من الحصى وفنوناً من الحشرات . وكان ينفق الأسبوع والشهر والأشهر لا يغمس هذا الخبز إلا فى العسل الأسود ، وأنت لا تعرفين العسل الأسود . وخير لك ألا تعرفيه . . .

« وكذلك كان يعيش أبوك جاداً مبتسماً للحياة وللدرس ، محروماً لا يكاد يشعر بالحرمان . حتى إذا انقضت السنة وعاد إلى أبويه يسألانه كيف يأكل ؟ وكيف يعيش ؟ أخذ ينظم لهما الأكاذيب ، كما تعود أن ينظم لك القصص ؛ فيحدثهما بحياة كلها رغد ونعيم ، وما كان يدفعه

إلى هذا الكذب حب الكذب ، إنما كان يرفق بهذين الشيخين ، ويكره أن ينبئهما بما هو فيه من حرمان ، وكان يرفق بأخيه الأزهرى ويكره أن يعلم أبواه أنه يستأثر دونه بقليل من اللبن . كذلك كانت حياة أبيك فى الثالثة عشر من عمره . فإذا سألتنى كيف انتهى إلى حيث هو الآن ؟ وكيف استطاع أن يهيئ لك ولأخيك ما أنتما فيه من حياة راضية ، وكيف استطاع أن يثير فى نفوس كثيرين من الناس ما يثير من حسد وحقد وضغينة ، إن سألت كيف انتقل من تلك الحال إلى هذه الحال ، فلست أستطيع أن أجيبك . وإنما هناك شخص آخر هو الذى يستطيع هذا الجواب . فسليه ينبئك . أتعرفينه ؟ انظرى إليه ، هو هذا الملك القائم ، الذى يحنو على سريرك إذا أمسيت لتستقبلى الليل فى هدوء ونوم لذيذ ، ويحنو على سريرك إذا أصبحت لتستقبلى النهار فى سرور وابتهاج . ألست مدينة لهذا الملك بما أنت فيه من هدوء الليـــل وبهجة النهار .

« لقد حنا يا ابنتى هذا الملك على أبيك ، فبدله من البؤس نعيما ، ومن اليأس أملا ، ومن الفقر غنى ، ومن الشقاء سعادة وصفوا . ليس دين أبيك لهذا الملك بأقل من دينك ، فلتتعاونا يا ابنتى على أداء هذا الدين ، وما أنتما ببالغين من ذلك بعض ما تريدان[1] » .

٢ – « يوميات نائب فى الأرياف » لتوفيق الحكيم :

برغم أن هذه اليوميات[2] تعرض لفترة من حياة المؤلف خلال عمله

---

(١) انظر : الأيام ص ١٣٥ – ١٣٩ .

(٢) ظهرت « يوميات نائب فى الأرياف » فى طبعتها الأولى سنة ١٩٣٧ . وكان ينشرها قبل ذلك مسلسلة فى مجلة الرسالة .

obeikandi.com

الوظيفي كوكيل نيابة في الريف ، قد جاء حظ تلك الحياة ضئيلا في اليوميات ، حتى أوشكت تلك الحياة أن تكون نافذة نطل منها على كثير مما التقطه حس الكاتب المرهف من مظاهر الفقر والجهل والقهر ، التي كانت مفروضة على الريف المصري ، أيام تسجيل المؤلف ليومياته .

فقد حدثنا المؤلف عن عمله كوكيل للنيابة ، وعن حياته وحيداً أعزب في أعماق الريف وميله إلى التأمل والنقد[1] ، كما حدثنا عن نفرته من جو الموظفين وما درجوا عليه من تزجية للفراغ بأمور قد تمس هيبة العمل ، وقد تضيع الوقت وتسيء إلى السمعة[2] ، ولم يفته أن يكون صريحاً حين حدثنا عن افتتانه بالجمال ووقوعه تحت تأثيره ، حتى ولو كان جمال فتاة تعتبر طرفاً في قضية[3]. ولكن إلى جانب هذا العنصر الشخصي البسيط ، حدثنا المؤلف عن تخلف القرية اقتصادياً وصحياً وفكرياً وإدارياً . كما حدثنا عن جمود كثير من نظم القضاء ، وانفصالها عن طبيعة المجتمع الذي من شأنها أن ترعى العدالة فيه ، واهتمامها بالشكليات والمظهريات وحرفية القوانين واللوائح ، أكثر من اهتمامها بإحقاق الحق ، وإقرار العدل . كما حدثنا عن فساد بعض رجال الإدارة وبعدهم عن أن يكونوا أمناء على الأمن وحماة لحقوق الناس وأرواح المواطنين ، واهتمامهم قبل كل شيء بمكاسبهم وسيطرتهم وإرضاء الرؤساء الأعلى منهم ، حتى ينتهي الأمر إلى خضوعهم المطلق لوزير الداخلية ، الذي كان عادة رئيساً للوزراء ، والذي

---

(١) انظر : « يوميات نائب في الأرياف » ص ٩٤ .

(٢) انظر : « يوميات نائب في الأرياف » ص ٦٢ .

(٣) انظر : حديثه عن إحساسه بالفتاة « ريم » في يوميات نائب في الأرياف ص ٢٦ وما بعدها .

كان يمثل غالباً حزباً من الأحزاب المتطاحنة على السلطة ، والمسخرة كل شيء لمصلحتها الشخصية .

وقد عرض المؤلف كل ذلك فى شكل صور متتابعة أساسها الملاحظة الشخصية والتأمل الذاتى والتجربة المعيشة ، التى أتاحها العمل المتصل بكل هذه الأطراف . . كذلك جعل المؤلف محور هذه الصور حكاية بسيطة تبدأ بالغموض وتنتهى بالغموض ، لتشير هى الأخرى إلى الظلام والجهل وعدم اتضاح الرؤية فى هذا الريف البائس . . ثم عرض الكاتب كل هذه الأحاديث فى شكل يوميات يبدأ كل واحدة منها بذكر التاريخ ، ثم يشرع فى السرد والوصف والتعليق والنقد . وقد كانت اليوميات محدودة العدد ، فهى تبدأ بالحادى عشر من أغسطس ، وتنتهى بالثالث والعشرين منه . ولكنها مع ذلك زاخرة باللوحات الحية والصور النابضة والنقدات الجريئة والتوجيهات الحكيمة .

فقد أخبرنا المؤلف أنه تلقى إشارة ذات ليلة بوقوع حادث إطلاق عيار نارى على رجل فى إحدى القرى ، فكان عليه أن يغادر المركز ويذهب للتحقيق فى تلك القرية . وفعلا توجه فى شبه قافلة تتألف منه ومن مساعده وكاتبه والمأمور وبعض الجند ، وقد صحب الجميع رجل مجذوب اسمه « الشيخ عصفور » ، تعود أن يصحب رجال البوليس فى مثل تلك التحركات ؛ لأن المأمور كان يعطف عليه وكان الجنود يستريحون إليه . وحين فُتح التحقيق بدا سبب إطلاق النار غامضاً كل الغموض ؛ فالرجل ليس له خصوم ، بل ليس له أقارب . وبينما وكيل النيابة فى حيرة شديدة، سمع « الشيخ عصفور » يغنى موالا يقول فيه : «فتش عن النسوان ، تعرف سبب الحزان » ، فتنبه إلى أنه يمكن أن يكون وراء الجريمة امرأة . فتحرى حتى عرف أن لهذا المجنى عليه

أختَ زوجةٍ تسمى « ريم » ، فاستدعاها ليسألها ، علها تهدى إلى سبب الجناية فلم يجد عندها تفسيراً . ولما كان الوقت قد تأخر به ، وكان عليه أن يحضر جلسة الصباح فى محكمة المركز كوكيل نيابة بجانب القاضى ؛ فقد رأى أن يعود إلى المركز ، وأن يصحب معه « ريم » حتى يفرغ للتحقيق معها على مهل .

وفى المركز طلب المأمور أن تكون « ريم » فى بيته حتى تستدعى للتحقيق . وبرغم خوف وكيل النيابة عليها من أطماع المأمور ، وافق مكرهاً . ولكنه انتهز فرصة ورود إشارة من إحدى القرى ، بالعثور على مسمار على شريط السكة الحديد يهدد قطاراً ، فاستدعى المأمور ، واصطحبه إلى تلك المهمة ، حتى لا يمكنه من الاختلاء « بريم » .

ويعود وكيل النيابة إلى المركز من جديد ، ويحضر بعض الجلسات القضائية المرهقة المملة ، كما يقوم ببعض التحقيقات السطحية البعيدة عن المنطق وتقدير ظروف الناس .

وبعد أن يفرغ من هذه الأعمال ويحاول أن يشرع فى نظر قضية العيار النارى ، ويطلب « ريم » ؛ يبلَّغ أنها قد هربت مع المجذوب « الشيخ عصفور » . وبعد لأى يعثر على « الشيخ عصفور » فقط ، وعند سؤاله لا يجيب بشىء عن مصير « ريم » ، ولا يفلح معه إغراء أو تهديد ، ويعود الأمر إلى الغموض .

ويتجه المحقق إلى تلمس خيط يقربه من مصير « ريم » التى يمكن أن تكون مفتاح القضية ، فيسأل المأمور ومساعديه أن يحضروا إليه فتى اسمه « حسين » كان قد خطبها فرفضه زوجُ أختها المجنىُّ عليه . ولكن المأمور ومساعديه يعتذرون بأنهم مشغولون بسبب التغيير الوزارى وما يتبعه من تغيير

العمد ، وما سوف يكون من إعداد للانتخابات الجديدة ، التي كانت تتبع التغيير الوزارى عادة .

وهكذا يحاول وكيل النيابة الاعتماد على نفسه فى تحرى الأمر ، فيستدعى كل من يظن أنه « حسين » هذا الذى كان قد خطب « ريم » . ولكنه لا يظفر بشيء . وأخيراً تأتيه إشارة بالعثور على الفتاة غريقة . . وتسدل الستارة على قصة العيار النارى بموت المجنى عليه ، وبموت الفتاة التي كان من الممكن أن تهدى إلى شيء .

وبسبب تكدس العمل على وكيل النيابة ، وبدافع الخضوع « للروتين » الذى يطالب فقط بتسديد الخانات ، يغلق وكيل النيابة القضية بأن يؤشر عليها : « تحفظ القضية لعدم معرفة الفاعل[١] » .

هذه هى الحكاية البسيطة التي اتخذها المؤلف نافذة يطل منها — ونطل معه — على تخلف الريف ، وفساد الإدارة وجمود القضاء ، أيام عبث الحياة السياسة الحزبية . فقد انتهز الكاتب فرصة ذهابه إلى بعض القرى للتحقيق أو اتصاله ببعض القرويين فى مجال العمل ، وحدثنا عما كان من انحطاط المستوى المادى والصحى والثقافى للريفيين ، وعن وقوعهم تحت قهر العمدة الواقع بدوره تحت سلطان المأمور . . كذلك انتهز الكاتب فرصة عمله مع رجال الإدارة ليحدثنا عما كان من سطحية هؤلاء وتسلطهم وجشعهم ، حتى لا يهتم المأمور إلا بما يقدم العمدة من طعام ريفى دسم ، ولا تنال العدالة من مساعدته إلا تسديد الخانات وإتمام الشكليات ، حتى ولو أدى ذلك إلى إفلات الجناة أو إلباس التهم للمظلومين . . بل إنه هو وأعوانه يقصرون

---

(١) انظر : « يوميات نائب فى الأرياف » ص ١٧١ .

فى البحث والتحرى لمساعدة النيابة ، بحجة أنهم مشغولون بالتغيير الوزارى ؛ وما يتبعه من تبديل العمد ، وما يعقب ذلك من إعداد لتزوير الانتخابات .

كذلك انتهز المؤلف فرصة عمله فى التحقيقات وحضور الجلسات ، ليكشف لنا عما كان من جمود القانون وانفصاله عن حياة الناس وعدم ملاءمته لهم . فيذكرلنا مثلا كيف حقق مع رجل ريفى فقير لأنه اقتلع « كوز ذرة » من أحد الحقول ليسد به جوعه ، وكيف أن منطق الرجل كان أقوى من منطق القانون ، ومع ذلك حكم عليه بالحبس . كذلك يذكر لنا المؤلف كيف حضر محاكمة آخر لأنه غسل ملابسه فى الترعة ، وكان عجب الرجل لا يحد ، لأن الدولة تحاكمه على أنه سلك من أجل النظافة الطريق الذى ليس أمامه سواه .

كذلك انتهز المؤلف فرصة عمله مع القضاة ووصف لنا ما كان يترتب على عمل بعض هؤلاء فى المراكز وحياتهم فى القاهرة ، من اضطرارهم إلى التعجل فى نظر القضايا ، واهتمام بعضهم بحمل بعض خيرات الريف أكثر من اهتمامهم بتحقيق العدل ؛ كهذا القاضى الذى كان يحضر فى الصباح فيطلق الأحكام قبل أن يسمع بقية أقوال المتقاضين والشهود ، بل كان يتم بعض واجبات وظيفته فى المحطة ، لأنه يريد أن يدرك قطار الظهر ، حيث يكون الحاجب قد اشترى له البيض واللحم ، وأدركه قبيل قيام القطار .

وهكذا كشف المؤلف من خلال حديثه عن حياته الوظيفية ، وعن طريق الترجمة لحياته فى فترة من فتراتها ؛ عن كثير من العيوب الاجتماعية والخلقية ، واهتم فى المقام الأول بالريف ووجوب العناية به مادياً وصحياً وفكرياً وإدارياً ، كما اهتم بنظام الشرطة ووجوب حمايته من الاستغلال

obeikandi.com

والنفعية والمظهرية ، كما عنى بنظام القضاء ، وحتمية تخليصه من الجمود و « الروتين » ومن خدمة اللوائح والنصوص أكثر من خدمة العدالة وروح القانون .

ويلاحظ أن المؤلف قد عمد إلى السخرية فى كثير من تصويره للعيوب ، وقد جرته السخرية إلى المبالغة أحياناً . وكانت المبالغة موفقة إلى درجة كبيرة لأنها كانت بمثابة الرسم « الكاريكاتيرى » الذى يجود فى مجالات التجسيم والتضخيم والتركيز ، وكل ذلك مطلوب والمؤلف بصدد الحديث عن عيوب يجب أن تجسم وتضخم ويركز على مواطن الخطر فيها . وهذا الأسلوب من أجود ما وفق إليه الحكيم فى هذا العمل .

كذلك وفق الكاتب فى الخروج من ذاته إلى عمله ، وتجاوز عمله إلى مجالات هذا العمل وارتباطاته ، وما يكون لهذه وتلك من صلات بالناس . حتى بدا جانب الذات متوارياً فى تلك اليوميات . واتضح الناس ومشكلاتهم المتصلة بعمل صاحب اليوميات والواقعة تحت ملاحظته وفى نطاق تجربته . وهذا المضمون من أجود ما وفق إليه الحكيم كذلك .

غير أنه يلاحظ أن الكاتب برغم نقده المر وتوجيهه السليم ، كان فى بعض المواطن لا يتخذ موقفاً إيجابياً — ولا نقول ثورياً — بل كان يكتفى بإظهار المرارة ، أو عدم الرضا ، ولكنه آخر الأمر يستسلم ويفعل ما تفرضه الأوضاع المتخلفة ، وما يفعله الآخرون ممن يوجه إليهم النقد . . ومن ذلك حادثة تفتيش السجن تفتيشاً شكلياً ، حيث أقر هذه الشكلية ، برغم عامه بزج رجال البوليس بالأبرياء فى حجرة التبن ، لمجرد أنهم ليسو من المرضى عنهم سياسياً من الحزب الحاكم الجديد[1] . . ومن ذلك إنهاؤه لقضية

---

(١) انظر : « يوميات نائب فى الأرياف » ص ١١٩ — ١٢٠ .

المجنى عليه لتخلى رجال الإدارة عن مساعدته ، ولاهتمام وزارة العدل بمجرد التصرف فى القضايا وتسديد الكشوف[1] ومن ذلك أيضاً نومه أثناء حضور بعض الجلسات برغم مسئوليته الضخمة التى لا يعفيه منها التعب ولا كثرة العمل[2] ؛ فقد كان من الممكن نيل إجازة أو ترك العمل كلية ، فهذا خير ألف مرة من عدم تحقيق العدل فى أمور المتقاضين .

كذلك يلاحظ أن المؤلف كان يبدو أحياناً غير متعاطف مع الريفيين ، برغم دفاعه عنهم ونقده الأوضاع من أجلهم . فالقارئ يحس أحياناً أن المؤلف يكاد يشمئز منهم ، أو يوشك أن يتعالى عليهم برغم حبه لهم واهتمامه بقضاياهم . ومن ذلك تعليقه على جماعة من الريفيين كانوا عنده فى تحقيق ثم انصرفوا ؛ فقد ذكر أن رائحة المكان بدت كريهة بعد انصرافهم ، مما جعله يستدعى الحاجب لفتح النوافذ ، فيفعل الحاجب وهو يقول عن الفلاحين : « هذا الجاموس الأبيض الذى لا ينبغى إدخاله حجرات الحكومة[3] » .

وقد لجأ المؤلف إلى العامية غالباً فى الحوار ، وهذا مذهب فنى من حق الكاتب أن يأخذ به ، ولكنه كان يعرب بعض الألفاظ العامية ، أو يخلط بين العامية والفصحى ، مما اضطربت معه لغة الحوار أحياناً[4] .

---

(١) انظر : « يوميات نائب فى الأرياف » ص ١٧٦ .

(٢) انظر : « يوميات نائب فى الأرياف » ص ٤٠ .

(٣) انظر : « يوميات نائب فى الأرياف » ص ٧٠ .

(٤) اقرأ مثلا فى صفحة ٦٥ من « يوميات نائب فى الأرياف » قول الفلاح : « أنا من جوعى نزلت غيط من الغيطان سحبت لى كوزاً » وقوله : « هات لى شغل وعيب على إن كنت أتأخر لكن الفقير منا يوماً يلقى وعشرة ما يلقى غير الجوع » وقوله : « القانون يا جناب البك على عيننا وراسنا لكن برده القانون عنده نظر » .

على أن « يوميات نائب فى الأرياف » برغم ذلك من أهم الأعمال الفنية فى الأدب الحديث ، وهى من أروع كتابات الحكيم وأكثرها أصالة ؛ وذلك بما سنت من شكل أدبى مبتكر ، وبما اتجهت إليه من اتخاذ الذاتية معبراً الى الموضوعية ، ثم بما حوت من نقد اجتماعى موجه ، وتصوير فنى رائع ، وروح فكاهى ساخر ، وأسلوب أدبى رشيق .

وهذا نموذج من « يوميات نائب فى الأرياف » ربما يقرب ما رصد لها من سمات . . يقول الحكيم واصفاً ما كان فى إحدى جلسات التحقيق ، وما دار بين وكيل النيابة وبعض المتهمين من أهل الريف :

« وظهر الحاجب فأمرته بإحضار المتهم الأول فدخل رجل فلاح كهل قد برز من صدره شعر أزرق أشيب كأنه شعر ضبع . . .

— أنت سرقت كوز الذرة ؟

فأجاب الشيخ لفوره من جوف مقروح :

— من جوعى !

فنظر المساعد إلىّ وقال فى لهجة الانتصار :

— « اعترف الرجل بالسرقة » .

فقال الرجل فى بساطة :

— ومن قال إنى ناكر ، أنا صحيح من جوعى نزلت فى غيط من الغيطان سحبت لى كوزاً . . .

— سين ، يا راجل لماذا لا تشتغل ؟

— جيم ، يا حضرة البك هات لى شغل وعيب علىّ إن كنت أتأخر . لكن الفقير منّا يوماً يلقى وعشرة ما يلقى غير الجوع .

— أنت فى نظر القانون متّهم بالسرقة .

— القانون يا جناب البك على عيننا وراسنا . لكن برده القانون عنده نظر ويعرف أنى لحم ودم ومطلوب لى أكل .

— لك ضامن يضمنك ؟

— أنا واحد على باب الله .

— تدفع كفالة ؟

— كنت أكلت بها .

— إذا دفعت يا رجل خمسين قرشاً ضمان مالى يفرج عنك فوراً .

— خمسين قرش ! وحياة راسك أنا ما وقعت عينى على صنف النقدية من مدة شهرين . التعريفة نسيت شكله ! ما أعرف إن كان لحد الساعة (مخروم) من وسطه والا سدوه . . .

— يحبس المتهم احتياطيًّا أربعة أيام ويجدد له ، ويعمل له فيش وتشبيه اسحبه يا عسكرى . !

فقبل الرجل كفه وجهاً وظهراً حامداً ربه :

— وماله . الحبس حلو . نلقى فيه على الأقل لقمة مضمونة . السلام عليكم .

وخرج الرجل يدب وقد وضع فى معصمه القيد . . .

وطلبت القضية التالية . فظهر العسكرى ومعه آخر ، وفتحا باب مكتبى على مصراعيه وجذبا إلى داخل الحجرة أكثر من ثلاثين رجلا وامرأة وولداً قد شُدوا فى حبال الليف . . . ، فما تمالكت أن صحت لمنظرهم :

— الله أكبر ! مواشى طالعة سوق السبت ؟ حل الحبال يا عسكرى !

فقال العسكرى وهو يحل بأسنانه عقدة الحبل :

— فتشنا يا سعادة البك بيوتهم وجدنا فيهـــا الممنوعات . وباقى

غيرهم من أهل الناحية تحت التفتيش، والقبض بمعــرفة حضرة الملاحظ وأورطة الهجانة .

فأدرت بصرى فى هؤلاء الآدميين ، واستعدت فى مخيلتى ما قرأته الساعة عن تهمتهم فى الأوراق التى أمامى وقلت :

— ممنوعات !

فاستدرك الحارس :

— الملبوسات يافندم .

نعم إن ما قرأت الساعة هو أن سيارة كبيرة كانت تحمل أكياساً ضخمة مملوءة بمختلف الملابس القطنية والصوفيــة من معاطف وسترِ وسراويل . . . لحساب متجر فى القاهرة من المتاجر الشهيرة . وكانت تجتاز ليلا بكل هذا جسر التّرعة المحاذية لدائرة الناحية ، فسقط منها فى الماء كيس كبير مفعم بألوان الملابس ، ولبث الكيس فى أعماق التّرعة حتى انخفض منسوبها وانحسر الماء عن البضاعة ، فهرعت تلك البلدة العارية إلى ذلك الكنز الذى لا يشابه كل الكنوز . . . إلى أن رآهم رجال الحفظ واستكثروا عليهم النعمة وعدوها بالنسبة لهم « ممنوعات » . . ورأيت أول الأمر أن أسألهم جملة على أظفر منهم باعتراف ييسر مهمتى ، فألقيت عليهم نظرة شاملة :

— سرقتم الملابس ؟

فأجابنى من بينهم صوت عميق رزين :

— أبداً والله ما سرقنا ولا نعرف السرقة ؛ البحر رمى علينا الكيس وكل واحد منا طال نصيبه .

فقلت للرجل من فورى :

— نصيبه ؟ ! هو الكيس ملك البحر والا له أصحاب . . . !

فأجاب الرجل فى صوته العميق الهادئ :

— راح من بالنا أن له أصحاب يا حضرة البك ربنا يعلى مراتبك ! ارأف بحال الفلاحين المساكين !

— المسألة مسألة قانون والقانون صريح : إن كل من وجد شيئاً مملوكا للغير وحفظه بنية امتلاكه يعامل معاملة السارق . فهمتم ؟

— فهمنا يا حضرة البك . لكن . . بقى الكساوى كانت قدام نظرنا ورماها البحر علينا والواحد منا من غير مؤاخذة عريان . . .

— انت يا راجل فاكر الدنيا فوضى . والا فيه قانون وحكومة ؟

ويظهر أن الرجل لم يستطع صبراً فقال :

— بقى هى الحكومة لا منها ولا كفاية شرها ؟ لا تكسينا ولا تتركنا ننكسى .

— أنا مضطر إلى حبسكم

— يا جناب البك أنتم فتشتم دورنا وسحبتم الكساوى منا . والعيال الفرحانة عادت تبكى ورجعنا لأصلنا . بقى الحبس له لزوم ؟ !

— أفرج عنكم بضمان مالى .

— مالى ؟ ! الفلاحين عرايا يا حضرة النايب !

— تفضلوا من غير مطرود ، دماغى وجعنى ، والمناقشة مع أمثالكم ضياع وقت . القانون صريح وأنا مقيد بنصوص أشد من الحبال الموضوعة فى أيديكم . المسألة عندى قبل كل شىء مسألة قانون . يحبس المتهمون كلهم احتياطياً أربعة أيام ، ويجدد لهم ، ويعمل لهم فيش وتشبيه ، اسحبهم يا عسكرى !

فخرجوا جميعاً فى صف طويل وفى ذيلهم رجل يقول هامساً :

– يحبسونا لأن ربنا كسانا !

وهدأ المكان . ولكن رائحة كريهة انتشرت فى الحجرة ، فناديت الحاجب وأمرته بفتح النوافذ ، ففعل وهو يلعن بصوت خافت هذا الجاموس الأبيض الذى لا ينبغى إدخاله حجرات الحكومة[١] » .

(١) انظر : « يوميات نائب فى الأرياف » ص ٦٤ – ٧٠ .